الأوضاع في جبل شمّر وحملة الشريف على نجد وما واكبها من أحداث

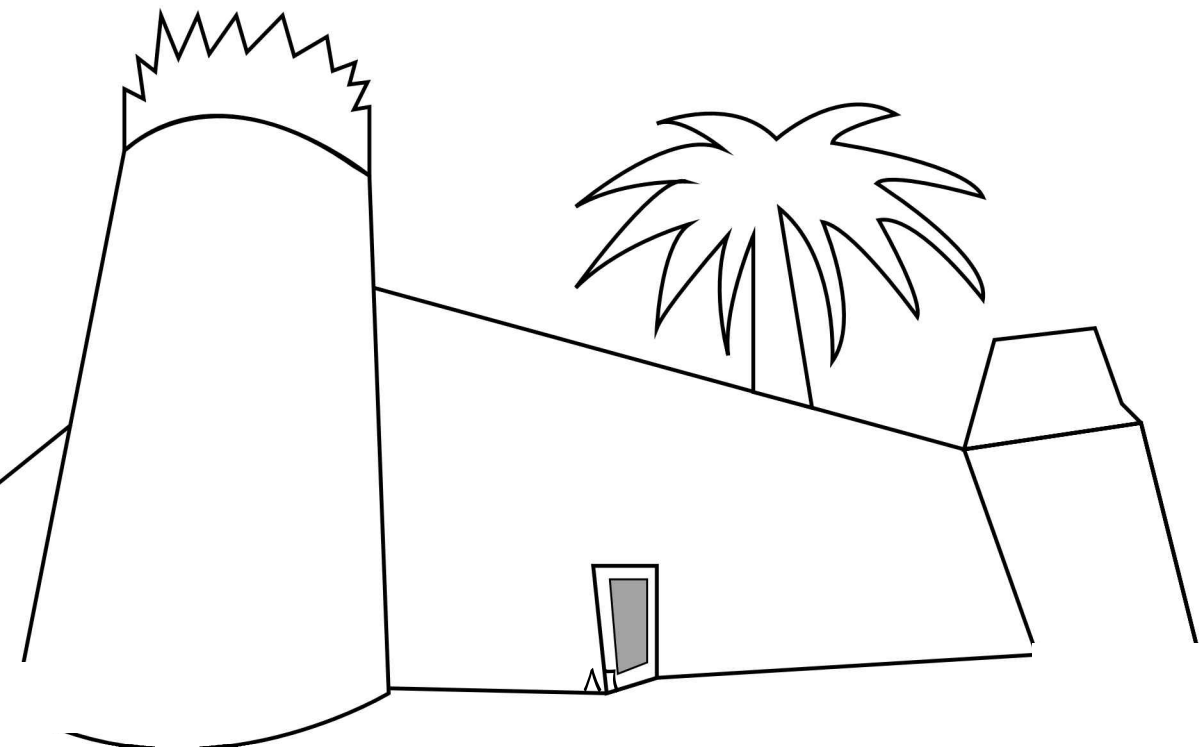

١- الأوضاع في جبل شَمَّر:

بعد دخول الملك عبدالعزيز بُرَيدة بأيام وصل إليه مندوب الأمير سلطان الحمود بن رشيد يخبره بقبوله ما اشترطه عليه عن طريق ابن طوالة[١]. غير أن ذلك الأمير لم يستمر في الحكم إلا أيامًا معدودات. فقد تَمكَّن آل سبهان من مغادرة حائل بالأمير سعود بن عبدالعزيز بن متعب، ووصلوا إلى المدينة المنوَّرة[٢]. وساءت العلاقة بين الأمير سلطان وأخيه سعود، فخرج الأول من حائل مُتَّجهًا إلى الجوف، لكن الثاني أدركه وأعاده مُقيَّدًا، ثم قتله في جمادى الأولى[٣]. على أن كثيرًا من أهالي جبل شَمَّر وقبائله قد نقموا على آل عُبَيْد بن رشيد لقتلهم ابني عبدالعزيز بن متعب، فارتحل أعداد منهم إلى الحجاز. ثم رَتَّب المرتحلون وآل سَبْهان مع أنصارهم في حائل للإطاحة بسعود الحمود.

وتَمَّ لهم ذلك في شعبان سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨/٩م[٤]. وتولَّى حمود بن سبهان مقاليد الأمور في البلاد نائبًا عن الأمير سعود بن عبدالعزيز، الذي كان عمره حينذاك عشر سنين[٥].

---

(١) القاضي، ص٣٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٨٥.

(٢) استغل آل سبهان فرصة خروج سلطان من حائل غازيًا، واستأذنوه بأنهم سيتأخرون عن السير معه لتجهيز جنازة لديهم، فأذن لهم. ولما ابتعد عن البلدة قليلًا خرجوا منها. القاضي، ص٣٣.

(٣) يذكر القاضي (المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها) أن مقتله كان آخر ذلك الشهر. ويقول الذكير (نسخة خاصة، ص٨٦): إنه كان في العاشر منه. أما موزل (ص٢٤٧) فقد جعل مقتله في ١٣٢٥/١٢/٢٥هـ. وقد تبعه، فيما يبدو، فيلبي، ص٢٥٢. ومن الواضح خطأ هذين الأخيرين، لأن مقتل سلطان كان بعد إزالة أبا الخيل عن إمارة بريدة في شهر ربيع الثاني عام ١٣٢٦هـ.

(٤) القاضي، ص٣٣؛ سليمان الدخيل، **القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد**، طبع ملحقًا بنبذة ضاري الرشيد، السالفة الذكر، ص١٥٩، موزل، ص٢٤٧. وقد ذكر فيلبي خطأ (ص٢٥٤) أن ذلك حدث في المحرَّم سنة ١٣٢٧هـ. وأخطأ مثله ابن ناصر، ص٧٤.

(٥) القاضي، ص٣٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٨٦.

ولم يمض شهر على تولِّي حمود بن سبهان مقاليد الأمور في جبل شمَّر حتى خرج من حائل غازيًا، وهجم على فريق من قبيلة مطير شمال بريدة، فغنم ما غنم، ثم عاد إلى قاعدة إمارته. على أن المنيَّة وافته آخر عام ١٣٢٦هـ. فتولَّى الأمر بعده زامل بن سَبْهان، الذي بدأ عهده بغزو أتباع الملك عبدالعزيز من البادية في الوقت الذي كان الملك خلاله متجهًا لغزو فئات من شَمَّر. ولقد حاول زامل أن يباغت الملك ومن معه بهجوم ليلي في مكان يقال له: الأشعلي، لكن الملك خطط للمعركة ببراعة، فترك مخيمه وكثيرًا من إبله حوله ليشغل خصومه المهاجرين بالاستيلاء عليهما، ثم هجم عليهم وهزمهم، فعادت فلولهم إلى جبل شَمَّر. وكانت تلك المعركة في الخامس من ربيع الأول عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩/٣/٢٦م[١].

ومن الواضح أن المشكلات بدأت تتراكم على إمارة جبل شَمَّر. فقد ازداد عدد الذين يغادرون الإقليم جنوبًا أو شمالًا، وازدادت غارات أتباع الملك عبدالعزيز على أطراف الجبل ذاته، كما تَمكَّن ابن شعلان من فرض نفوذه على جهات من الجوف[٢]. ولَعلَّ هذا من بين الأمور التي دفعت تلك الإمارة إلى مصالحة الملك عبدالعزيز مُؤقَّتًا[٣].

٢- حملة شريف مكة على نجد وما واكبها من أحداث:

شهدت سنة ١٣٢٧هـ مجاعة شديدة عانى منها كثير من النجديين ما عانوا من أهوال. ومات قسم غير قليل من إبل البادية وغنمها[٤]. فانخفضت بذلك

(١) المصدر الأخير نفسه، ص٨٧؛ الريحاني، ص ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) موزل، ص ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ويذكر أن أمير الجبل لم يكتف بالمصالحة؛ بل اعترف بالسيادة العليا للملك عليه. ويبدو أن ذلك لم يحدث.

(٤) القاضي، ص٣٤؛ الريحاني، ص ص ١٧٩ - ١٨١؛ آل عبدالمحسن، ج٢، ص٩١. وتُسمَّى تلك السنة عند كثير من النجديين سنة الجوع.

الزكوات التي كانت مصدرًا مُهمًّا من مصادر دخل الملك عبدالعزيز حينذاك. وحدث في تلك السنة نزاع بين رؤساء بلدة الحَريق أَدَّى إلى ذهابه إليها وحصار أمرائها حتى نزلوا عند رغبته، وأخذ من رأى أخذه منهم معه إلى الرياض[١].

وكانت سنة ١٣٢٨هـ حافلة بالأحداث المُهمَّة. فقد شهدت بدايتها خروج عدد من أحفاد الإمام سعود بن فيصل من الرياض مغاضبين للملك عبدالعزيز[٢]. وشهدت ذهابه بقوات كبيرة نجدة لأمير الكويت ضد زعيم المنتفق، سعدون المنصور. وقد دارت بين الفريقين معركة سُمِّيت معركة هَديَّة في الأسبوع الأول من ربيع الأول، فانتصر سعدون على خصميه، وغنم كثيرًا مما كان معهما[٣]. ومن المحتمل أن نتيجتها كانت من بين عوامل دفعت بعض الجهات إلى الحركة. فقد قام ابن سَبْهان، المشرف على الإمارة في جبل شَمَّر، بغزو قبيلة عُتَيبة قرب الشَّعْراء[٤]، ووصل إلى عالية القصيم حيث كتب إلى أمير عُنَيزة يغريه بالوقوف معه؛ مشيرًا إلى ما حدث في معركة هَديَّة. لكن ذلك الأمير رفض أَيَّ تعاون معه[٥]. واستولى أحفاد الإمام سعود بن فيصل على الخرج وإن لم يستولوا على قصرها[٦]. فجمع الملك عبدالعزيز قواته، وتوجه لاسترداده منهم. فلما أقبل عليهم غادروا الإقليم إلى الحريق، حيث استولوا عليه بالتعاون

---

(١) القاضي، ص ص ٣٤ - ٣٥؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٨٨؛ الريحاني، ص ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) القاضي، ص٣٥؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٨٩؛ الريحاني، ص١٨١.

(٣) انظر تفصيلها لدى القاضي، ص٣٥؛ الذكير نسخة خاصة، ص ص ٨٩ - ٩٠؛ الريحاني، ص ص ١٨٤ - ١٨٨؛ خزعل، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص ص ٢٢٧ - ٢٣٢. وهذه المصادر أشارت إلى حدوثها في أول جمادى الآخرة. لكن الوكالة البريطانية في الكويت أشارت إليها في يومياتها التي كتبتها في الأسبوع الأول من ربيع الأول. وبالإضافة إلى هذا ذكرها في ربيع المؤرخ الكويتي المعاصر لها عبدالعزيز الرشيد، **تاريخ الكويت**، بغداد، ١٣٤٤هـ، ص ص ٩٨ - ٩٩.

(٤) الشَّعْراء: بلدة في عالية نجد.

(٥) القاضي، ص٣٦؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩٠.

(٦) المصدر الأول نفسه، الصفحة ذاتها.

مع الهزَّاني. وبينما كان الملك مشغولاً بهذه المشكلة بلغه وصول شريف مكة، الحسين بن علي، بقواته إلى جهة القُوَيعيَّة. وكان قد أرسل أخاه سعدًا إلى تلك الجهة لحث قبيلة عُتَيبة على الانضمام إليه في غزوه. فظفر به أعوان الشريف، وأُخِذَ سجينًا لديه[1]. وهكذا أصبح الملك عبدالعزيز أمام ثلاث جبهات: زعيم جبل شَمَّر، وأحفاد عَمِّه سعود بن فيصل ومن تحالف معهم، وشريف مكة. فَقرَّر أن يتعامل مع كُلٍّ جبهة على انفراد. وكان أن تفاوض مع زعيم الجبل وتَوصَّل معه إلى صلح[2]. فَجمَّد بهذا تلك الجبهة مُؤقَّتًا. وأَجَّل حسم الموقف مع أحفاد عَمِّه والمتحالفين معهم. وتَفرَّغ للتعامل مع الشريف حسين؛ خاصة أن أخاه سعدًا لديه[3].

ويذكر أحد المصادر أن تَوجُّه الحسين إلى نجد كان بمبادرة منه[4]. وتفيد مصادر أخرى أنه كان بأمر من الدولة العثمانية[5]. ويقال أيضًا، إن بعض النجديين أوهموه أن أهل نجد قد مَلُّوا من حكم الملك عبدالعزيز، وأنهم سَينضمُّون إلى الشريف بمجرد دخوله منطقتهم للإطاحة بذلك الحكم[6]. وكون الحملة بمبادرة منه لا يتعارض مع كون بعض النجديين قد أغروه بها. ولَعلَّ مما يُؤيِّد ذلك أن الحملة كانت، فيما يبدو قليلة العدد[7].

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها، الريحاني، ص١٩١.

(٢) المصدر الأخير نفسه، ص١٩٠؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩١؛ العبيِّد، ص١٦٣. ويذكر هذا الأخير أن الملك عبدالعزيز رضي بأن تكون زكوات حرب وبني عبدالله من مطير وهتيم لإمارة الجبل أينما وجدت تلك القبائل.

(٣) الريحاني، ص١٩١.

(٤) العمرو، ص١٤٠.

(٥) الريحاني، ص١٩١؛ فيلبي، ص٢٥٧.

(٦) القاضي، ص٣٧؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩٠.

(٧) قال خالد السعدون: إنها تتكوَّن من مئتي خيَّال وحوالي ألف رجل. انظر ما كتبه بعنوان: «أضواء على حملة شريف مكة على القصيم سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م»، الدارة، شوال ١٤٠٤هـ، ص ص ٦٩و ٧٣. وذكر العمرو (ص١١٠) أن الشريف تمكَّن من جمع أربعة آلاف بدوي في حملته. ولعلَّ هذا العدد -إن كان صحيحًا- يشمل من انضم إلى الشريف من قبيلة عتيبة في نجد.

انتقل الشريف من جهة القُوَيعية إلى الشَّعْراء، ثم إلى نِفِي. وقد أرسل إلى كلٍّ من أهل شقراء والرس ليبيعوه طعامًا، فلم يستجيبوا له. وكتب إلى أهل عُنَيزة رسالة أشار فيها إلى استياء أهل نجد من حكم الملك عبدالعزيز، وذَكَّرهم بصلاتهم الخاصة مع أسلافه، وحَثَّهم على إظهار السمع والطاعة له ليقتدي بهم الآخرون. فأجابوه بأن معلوماته عن النجديين خاطئة، وأن في أعناقهم بيعة للملك عبدالعزيز، وأشاروا عليه بالعودة إلى مكة[1].

أما الملك عبدالعزيز فترك أربع مئة رجل في الخرج عونًا لأميرها وأهلها ضد أَيِّ هجوم محتمل[2]. ثم جَهَّز أتباعه من الحاضرة والبادية، وسار بهم حتى وصل إلى السِّرِّ، وأخذ ما كان قد اشتراه الشريف هناك من أطعمة[3]. ثم واصل سيره حتى اقترب من نِفِي، ومن هناك بعث رسالة إلى الشريف ينصحه فيها أن يعود إلى بلاده وإلا فإنه سيهاجمه[4]، كما كتب إلى زعيم بَرْقا من عُتَيبة، محمد بن هندي، يُحمِّله مسؤولية مجيء الشريف إلى نجد وربط أخيه سعد، ويُحذِّره مَغبَّة عدم إطلاق سراحه[5]. ولقد أخذ هذا الزعيم الأمر مأخذ الجد، ففاتح الشريف بشأن سعد. وهكذا يبدو أن الحسين قد اتَّضح له أن الموقف لم يعد في صالحه. فابن رشيد، الذي كان يأمل في تعاونه معه، قد تَخلَّى عنه بعد صلحه مع الملك عبدالعزيز، وأوضح له أن لديه من المشكلات في شمال إمارته ما يحول

---

(١) القاضي، ص٣٧.

(٢) الريحاني، ص١٩١.

(٣) القاضي، ص٣٧.

(٤) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها.

(٥) العبيِّد، ص ص ١٦٦ - ١٦٧. وقد أورد نص خطاب الملك إلى ذلك الزعيم. وذكر أنه بذل مساعي طيبة ساهمت في إطلاق سراح سعد. ويؤيِّد ما ذكر عن جهود ابن هندي في هذا الموضوع رسالة من الحسين إلى الملك عبدالعزيز في ١٦ رمضان سنة ١٣٢٨هـ. وصورتها موجودة لدى كاتب هذه السطور.

دون قيامه بأَيِّ عمل معه[1]. وأهل نجد، بصفة عامة، لم يتجاوبوا معه. وابن هندي قد بدا منه ما يوحي برغبته في التَّوصل إلى تسوية بين الطرفين المتنازعين. والملك قد أقبل نحوه بقوات لا يستهان بها. على أن وجود سعد بن عبدالرحمن لديه كان الورقة الرابحة الوحيدة في يده، فلعبها ببراعة. وقد أرسل خالد بن لؤي إلى الملك عبدالعزيز ليعرض عليه شروطه. وكان منها أن يعترف الملك بسيادة الدولة العثمانية، وأن يدفع مبلغًا من المال كل سنة عن إقليم القصيم بالذات[2]. وتَمكَّن خالد من إقناع الملك عبدالعزيز بأن نوايا الشريف حسنة، وأنه لا يريد أكثر من اعتراف اسمي بتَبعيَّته للدولة العثمانية، وتَعهُّده بدفع مبلغ من المال سنويًّا، وأن هذا التعهُّد وذلك الاعتراف مما ينفع الحسين لدى تلك الدولة، ولا يَضرُّ بالملك لأنهما لن يدخلا حَيِّز التنفيذ[3]. واتَّفق الطرفان، وتبادلا الهدايا، وأُطلِق سراح سعد، وعاد الشريف إلى الحجاز. أما الملك عبدالعزيز فتوجَّه إلى عُنَيزة، ودخلها آخر شهر رمضان (٩/ ١٩١٠م)[4] ثم عاد منها صوب الرياض ليتَفرَّغ لحلِّ المشكلة القائمة في الحَرِيق.

تَوجَّه الملك عبدالعزيز بقواته حتى اقترب من الحَرِيق، وأخذ يستعد لحصارها. لكن من كانوا داخلها خرجوا لمقاتلته، ونشبت بين الطرفين معركة أبدى فيها كل منهما ما أبدى من صبر وشجاعة، وانتهت بانتصار الملك

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص٩١. وكان ابن رشيد، أو ابن سبهان النائب عنه في إدارة الإمارة، مشغولًا حينذاك بمشكلة تيماء. انظر موزل، ص٢٤٨.

(٢) الذكير؛ نسخة خاصة، ص٩١. وقد كتب زعماء بلدان القصيم رسالة إلى السلطان العثماني في ٢٥ صفر سنة ١٣٢٩هـ يستعطفونه بأن يعفيهم من دفع ما تقرر عليهم عن طريق الشريف؛ وهو ثلاثة آلاف مجيدي كل سنة. والمجيدي عملة نقدية عثمانية.

(٣) الريحاني، ص١٩٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩٢.

(٤) القاضي، ص٣٧.

عبدالعزيز. ثم انسحب قادة خصومه من البلدة، ودخلها ظافرًا[١]. وقد حاول المنسحبون دخول حوطة بني تميم فلم يسمح لهم أهلها بذلك[٢]. فذهب أكثر قادة الهزازنة إلى الأفلاج، فاعتقلوا هناك، ثم قُضِي عليهم فيما بعد[٣]. أما أحفاد الإمام سعود بن فيصل فَتفرَّقوا. فمنهم من ذهب إلى البحرين، ومنهم من تَوجَّه إلى الحجاز[٤]. وبعد نجاح الملك عبدالعزيز في الحَريق مضى إلى حوطة بني تميم، حيث طلب كبارها منه العفو عما بدر من بعض أهلها من محاولة مساعدة من حاربوه في الحَريق، فعفا عنهم، ثم عاد إلى الرياض[٥].

ولقد ظَلَّت علاقة الملك عبدالعزيز بإمارة جبل شَمَّر هادئة خلال عامي ١٣٢٩هـ و١٣٣٠هـ[٦]. لكنه اضطر إلى الذهاب صوب الكويت في العام الأول منهما نجدة لأميرها[٧]، كما اضطر إلى التَّوجه نحو الأحساء للتَّصدِّي لفئات من قبيلة العُجْمان قامت مع تركي بن عبدالعزيز، حفيد الإمام سعود بن فيصل. وكانت نتيجة مجابهته مع تلك الفئات مقتل تركي ولجوء أعداد منها إلى داخل المدن الأحسائية[٨].

على أن ما كان أَهمَّ مما سبق اتِّخاذ الحسين بن علي -رغم اتِّفاقه مع الملك عبدالعزيز- موقفًا غير ودِّي تَمثَّل في مضايقة من كانوا لديه من تجار نجد، ومنع الاتصال التجاري بين بلاده وسكانها، وجعل تلك البلاد منطلقًا

(١) المصدر نفسه، ص٣٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩٢.

(٢) الريحاني، ص١٩٥؛ القاضي، ص٣٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩٢.

(٣) القاضي، ص٣٨؛ الريحاني، ص١٩٦.

(٤) الذكير، نسخة خاصة، ص٩٢.

(٥) القاضي، ص٣٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩٢.

(٦) الذكير، نسخة خاصة، ص ص ٩٥ - ٩٦.

(٧) الريحاني، ص١٩٨.

(٨) القاضي، ص٣٩؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٩٤.

لأحفاد الإمام سعود بن فيصل الذين اعتمدوا في تَحرُّكاتهم، بدرجة كبيرة، على فئات من قبيلة عُتَيبة. ولقد حاول الملك عبدالعزيز أن يتفادى تدهور العلاقات بينه وبين الشريف، فأرسل إليه صالح بن عَذْل للتفاوض- ومعه هدية مُكوَّنة من أربع من الخيل وأربع من الإبل- فاستقبله الحسين استقبالاً حسنًا، لكن لما بلغه مقتل عَفَّاس بن محيَّا، أحد فرسان عُتَيبة المشهورين، غضب، ورَدَّ الهدية. ولم يصغ إلى ما عرضه ابن عَذْل من آراء بَنَّاءة[1]. فازدادت العلاقات توتُّرًا.

*****

(١) المصدر الأخير نفسه، ص ص ٩٣ و ٩٥ - ٩٦؛ القاضي، ص٤١. وكان مقتل عَفَّاس خلال هجوم للملك عبدالعزيز بأتباعه عليه في الثالث من ربيع الثاني عام ١٣٣٠هـ حسب رواية القاضي.